

الرسالة الموسومة بالبرهان

على ضعف

الانسان

تأليف المعلم ميخائيل مشاقفة

لا تكن عند نفسك عاقلاً، وعلى فطنتك لا تعتمد.

امثال ص ٢٤ ع ٢

هل تعرف ناموس السماء او تصنع ناموسها في الارض

ابوب ص ٢٨ ع ٢٢

فهرس

وج

- الفصل الاول. في ما يجب على الانسان من حقوق
المطالعة عندما نتقدم له قضية ضد احكام عقله ٤
- الفصل الثاني. في ان القوة العقلية الحاكمة في الانسان
لم تبلغ الى درجة الكمال ولهذا يخطي احيانا كثيرة في
احكامه ٩
- الفصل الثالث. في ايراد براهين على قصور عقل الانسان
عن ادراك حقائق كثيرة وان ذلك لا يستلزم نفيها ١٤
- الفصل الرابع. في ان اجتماع عقول البشر لا يزيد
مقدارها ولذلك لا يجعلها تدرك ما كان فوق القوة
المفروضة من الخالق لانسان واحد تام الخلقه ٢٥
- الفصل الخامس. في ان عدم مطابقة بعض مراسم
الديانة لاحكام العقل البشري لا ينفي صدقها ٢٠
- الفصل السادس. في ان التمييز بين صحيح الديانة
وفاسدها هو ما في طاقة الانسان ٣٥

الفصل السابع . في وجوب وضع الشريعة وان نواميس
الطبيعة لولا تكرار صدور افعالها على حواس الانسان
لكان العقل ينفي تصديقها

٤٤ . . .

الفصل الثامن . في ان الديانة هي اهم الامور الواجبة
على الانسان فلا يُعذر العاقل باهاها

٥١ . . .



بِسْمِ اللَّهِ الْحَيِّ الْأَزِيِّ

الحمد لله الواجب الوجود لذاته. المتعالي عن
جميع مخلوقاته. الذي لا تدرك الاوهام كنهه جلاله
العظيم. ولا يعرفه كما هو الا هو سبحانه من عزيز حكيم.
اما بعد فيقول العبد الضعيف الفاني. ميخائيل بن
جرجس مشاقة اللبناني. اني منذ ايام وقفت على
كتاب دليل الصواب الى صدق الكتاب. الذي
من مطالعته يُعرف فضل مؤلفه المعلم اسكندر
الاميري كاني اجزل الله له الثواب. ولما كان هذا
الكتاب افضل ما تُرجم وطُبع في اللغة العربية مما
يتعلق بصدق النبوات وتامها مع اقامة البراهين
الراهنه على صحة الديانة المسيحية وكنت اعهد من

اخواني واحبابي بعض اشخاص يترددون في صدق
 هذه القضية وكونها موحى بها من الله كتبت الى اعزهم
 عندي التماساً وجيزاً ان يطالع هذا الكتاب بالتأني
 والاصغاء التام ويمعن النظر في قوة براهينه مؤملاً
 بذلك دفع ارتيابه. فورد لي منه الجواب بهذه الصورة
 قد فهمت عبارتكم عن كتاب دليل الصواب
 وبحسب ذلك قد طالعته وتحقق عندي حسن
 تعقل مؤلفه. فانا من قبل مطالعة هذا الكتاب لم يكن
 عندي شك في ان الدين للناس هو خير من الكفر.
 وقد عرفت ايضاً من الكتاب المذكور ان فولتير
 ونظراءه ممن يكتبون ضد الديانة هم جهلة لا فلاسفة
 كما لا اشك بان الدين هو ضروري للانسان بما انه
 يجعله مرتاح الفكر سليم القلب عديم الشر محب
 الخير سهل المصالح محبوباً من الناس متصفاً بكل
 الصفات المقبولة عند البشر. ولكن مع هذا فاني ارجو

عزتهُ تعالى ان يعطيني نعمةً ويجعلني اتحقق ايُّ دينٍ
من الاديان هو الحق لان كل ديانةٍ تمدح نفسها
وتقذف في ما سواها. واني ارى الاديان الشهيرة قريبةً
من بعضها جوهرياً واختلفها انما هو في ما لانظنُّ ان
الله يسال عنه

فبعد وقوفي على مضمون هذا الجواب ولو كان
يظهر منه عدم اقتناع هذا الاخ الحبيب الا ان املي لم
ينقطع من رجوعه الى الحق لانني وجدته يطلب نعمة
الهداية من الله. وبناءً على ذلك شرعت في وضع هذه
الرسالة تنبيهاً له ولا مثاله من الذين تخطر لهم هذه
الاهام مستمداً منه تعالى ان يلهمني الصواب فيما اقرره
ويجعله مؤثراً في ضمير مطالعيه لان كل غرسٍ
لا يغرسه الاب السموي لا يثبت ولا يثمر. وسميتها
بالبرهان على ضعف الانسان. واساله تعالى التوفيق
وان يهديني الى سواء الطريق بمنه وكرمه امين

الفصل الاول

في ما يجب على الانسان من حقوق المطالعة عند ما نتقدم
له قضية ضد احكام عقله

ان كثيرين من الناس عند ما يطالعون شرحاً
مخالفًا لما استقرّ في اذهانهم يزدرون به قبل ان يستوعبوا
مضمونه . وربما يطرحونه من ايديهم او يمزقونه
اعتمادًا على صحة ما قد تقرّر في مخيلاتهم مع انه يمكن
ان يكون هو الحق . ولذلك لا يحكمون حكمًا عادلاً
لعدم اعطائهم ما يطالعونه حقّ المطالعة والتروية
في مضمونه . ولا ريب ان العاقل يجب عليه ان يفكر
بامكان وقوع الغلط منه كما يفكر بوقوعه من
الآخرين ولذلك ينبغي ان يطالع بالتدقيق التام في
فهم ما يطالعه وامعان النظر في البراهين الواردة
عليه من حيث قوتها وضعفها . مع رفع الميل النفساني

والتعصب الوراثي والتمسك بالتقليد. لان ذلك هو
السبب في استمرار الجهل بين القبائل والمناح لهم عن
حسن التمدن. وينبغي ان يكون المطالع متواضعاً
لقبول ما يلوح له فيه الحق ولو كان بخلاف تصوراته.
وانه متى انضح له عليه ادنى دليل يتمسك به ويفحص
بالتدقيق عن ملحقاته ومتعلقاته وما ينتج منها. ومتى
كان كذلك فعالباً لا يلبث حتى يرى الحق مشيداً
تجاه عينيه كحصنٍ منيع لا يتزعزع من صدمات اعدائه.
واما اذا صرف نظره عن قوة البرهان اعتماداً على
صحة تصوراته او على ما نقله عن اسلافه فيبقى معتقلاً
بسلاسل عبودية الغفلة ورباطات التقليد في سجن
ظلام الجهالة

اننا نطالع في تاريخ علم الفلك عن المعلم غاليلي
الشهير انه عندما قال بحركة الارض بناءً على ما
ثبت عنده من البراهين عليها لم يتناول علماء الديانة

مسألته كما يحقُّ لها من الفحص المدقق والنظر
 الاقصى بل سلّموا انفسهم لما هو قائمٌ في اوهامهم
 معتمدين على صحة ما يظنونهُ من عصمتهم وصدق ما
 نقلدوه عن اسلافهم وما هو واقعٌ تحت حواسهم من
 رؤيّة حركة الكواكب الظاهرة وثبوت الارض .
 فقابلوه على حكمته بطرحه في السجن توهاً منهم بان
 قوله هذا يفضي الى الكفر مع انه ما يزيد الاعتقاد
 بعظمة قدرته تعالى . واذ كان الحق نوراً ساطعاً لم
 يقدروا على اخفائه زماناً طويلاً حتى اشرقت براهين
 صدق كلامه على ظلمة اوهامهم واضطروا لتصديقه
 والاقرام بفضلِهِ وحكمهم عليه بغير الحق . فلو كانوا
 طرحوا عنهم رداء الكبرياء وتواضعوا في تناول تلك
 المسئلة كما هو الواجب لمثلها واعطوها حقها من
 الفحص بالتأني والتدقيق لكانوا سلّموا من التدنس
 بدم هذا المظلوم ومن الخزي المخلد ذكره في التواريخ

عند ما اضطرروا الى الاقرار بجهلهم ورجعوا الى قول
الذي اجتمعوا على مقاومته

وانني اذكر هذا الاخ بما قررت له له مشافهة سنة^{١٤٠}
عن اختراع صناعة الداغروتيب التي يصورون بها
الاشخاص بواسطة النور وبعض استحضارات كيمياوية.
وهو قد انكر حينئذ امكانها ولامني على تصديقي بها
حتى برهنت له عن صدق كلامي باحضاري له صورتي
المطبوعة بهذه الصناعة. وحينئذ اعتقد بصحتها بعد
جزمه باستحالتها

وهكذا اقول لو ان صدوقيا قيل له عن قيامة الموتى
لكان يصرف ذهنه عن تصديقها اعتمادا على التقليد
والمشاهدة وما يتصل اليه ادراكه من كونه لم ينظر
قيامه ميت. وبمقتضى هذه الدلائل السخيفة يحكم بان
ذلك امر مستحيل. ولكن لو تواضع وافتكر بقصور
معرفته عن ادراك الامور الفارقة على عقول البشر

وامعن النظر في كيفية وجوده من العدم. او كيفية
 نبات البزور بعد موتها في الارض وكيف تنمو بعد
 ذلك وثمر. وتأمل في بزره الحريير كيف تصير دودةً
 ثم تصير جيزاً ثم تصير طائراً الكان يرى قيامة الموتى
 من الممكنات. نعم ان ذلك امرٌ عجيب ولكن بالنسبة
 الى قدرة الانسان لا بالنسبة الى قدرة الخالق الذي
 اوجد الكائنات واعطاها القوانين العجيبة التي تشكر
 حوادثها على حواسنا كل يوم وكل لحظة وليس شيء
 منها تحت استطاعة قدرتنا. وفي هذا كفايةٌ لاقتناعنا
 بوجوب التدقيق والتروية في فحص ما يعرض على
 حواسنا قبل ان نحكم عليه سلباً او ايجاباً فرما كانت
 حقيقته على غير ما ظهرت لنا

الفصل الثاني

في ان القوة العقلية الحاكمة في الانسان لم تبلغ الى درجة
الكمال ولهذا يخطي احياناً كثيرة في احكامه

ان الخطأ في الحكم على الاشياء من حيث الجودة
والرداءة لا يكون من عدم امعان النظر فقط كما
تقدم بل قد يكون ايضاً من ضعف القوة العقلية
الحاكمة التي يظهر لنا انها موجودة في النوع الانساني
على وجه اتم وافضل مما هي في بقية انواع الحيوان .
ومع تفاضلها في افراد البشر لا يمكن بلوغها الى رتبة
الكمال في احد من الناس مهما اجتهد في تقويتها
بالعلوم والوسائط . بل لا بد من ظهور نقصها ظهوراً
واضحاً عند الاختبار ولذلك يخطي الانسان كثيراً في
احكامه

وإذا نظرنا في ما يرد على الانسان من الاضرار

نجد ان كثيراً من ذلك قد صدر من فساد احكامه
العقلية عند ما يحكم بجودة الشي مع كونه ردياً في نفسه .
كمن يحكم بجودة استعمال المسكرات مثلاً اعتماداً على
اجنلابها للسرور ويصرف النظر عن ملحقاتها فيخسر
صحة جسمه وحسن صيته ويربح الفقر والعار المهين
بين الناس . وهكذا من يحكم بصلاح ديانة ما بناءً على
ما يراه من او امرها بعبادة الباري تعالي واقرارها
بوحدانيته وكونها تامر بالبر وتنهي عن الفحشاء .
ويصرف نظره عن البحث فيما تدخله تحت اعمال البر
كمقاتلة مخالفيها وسلب اموالهم او سفك دماءهم . او
ما تدخله تحت الفحشاء كعمل الرحمة او النصيحة او
الحبة او الاكرام نحو مخالفيها . فيسقط في ما هو اشد
من الكفر باعتقاده ان الخالق الراؤف يطلب من
البشر عبادةً مثل هذه . وهكذا من يعتقد في نفسه
حسن الفطنة وسمو المعرفة لانه قد ادرك بعض

العلوم. ولذلك يزدري بمن يراه ليس من اربابها
ويحكم لنفسه بالفضل على غيره ويريد ان يخضع جميع
التصرفات البشرية لارائه فيسقط في رذيلة الكبرياء
التي لا تحتاج الى برهان على حماقة المتصفين بها
واذ كان يستحيل على النوع الانساني بلوغ مرتبة
الكمال كان اول واجب على العاقل ان يعلم ضعفه
وقصور معرفته. ويعتقد انه بحسب مبلغ قواه العقلية
ولو كانت في اعلى الدرجات عاجز عن ادراك
حقايق الاشياء كما هي في ذاتها وان غاية ما تحت
امكانه انما هي ادراك الاشياء بحسب تبديه له ظواهرها
المحالية. كالطبيب الذي يدرك ان هذا الدواء حار
او بارد بحسب مزاجه. فان معرفته هذه قد نتجت ما
نقرر عنده من الظواهر بالتجربة فقط ولكن لا يمكنه
ان يعرف المعرفة الحكمية لماذا كان كذلك. او
كالكياوي الذي يدرك قوانين الاتحاد الكيماوي

بين الاجسام المختلفة. فان غاية ادراكه ان يعرف ما
 قد ظهر له من حوادث هذا الاتحاد كاتحاد الزيوت
 بالقلويات مثلاً او المغنيسا بالحوامض بمقادير معلومة
 او ان الحامض البارودي يحل الفضة دون الذهب
 الى غير ذلك من الاعمال الكيماوية ولكنه لا يدرك
 العلة فيها ولا كيفية الحدوث على هذا الوجه
 الخصوص. وهكذا بقية العلماء في المحسوسات
 كالطبيعي مثلاً الذي يعرف ان المادتين الكهربائيتين
 الزجاجية الموجبة والراتنجية السالبة تتباعدان عند
 اجتماعهما في الاجسام وتقتاربان عند اختلافهما ولكنه
 يجهل الحقيقة الحكمية في ذلك. او الفيسيولوجي الذي
 يعترف بكون صور المبصرات تنطبع في الاعين
 معكوسة ولا يقدر ان يبرهن لماذا نراها مستقيمة
 وحينئذ يمكن ان يقال لهم اجمعين انكم تجهلون
 العلم الحقيقي. والذي عرفتموه فقد استنجبتموه من

حوادث الطبيعة الظاهرة لكم بطريق العادة المألوفة
 مما يقدر كل انسان ان يعرفه عند روية وقوعه امامه .
 ولكن لا تصلون الى المعرفة الحكمية بان تدركوا
 حقايق الاشياء كما هي في ذاتها . فغاية ما يقال انكم
 مورخون لحوادث الطبيعة او مطالعون لتاريخها
 لا عارفون بحقايقها من حيث هي كما يُظنُّ

الفصل الثالث

في ابراد براهين على قصور عقل الانسان عن ادراك
حقايق كثيرة وان ذلك لا يستلزم نفيها

ان غاية ما يتصل اليه علم الانسان بعد افراغ
جهده انما هو ادراكه لجهالته بحقايق الموجودات وان
ادراكه لاعمال الله لا يخلو من مشابهة بادراك البهائم
لاعظم اعمال البشر. فانها ترى الابنية المشيدة والسفن
السارية والاثواب المنسوجة وتسمع الالحان المنتظمة
الى غير ذلك ولكن لا تدرك كيفية اصطناعها. ولا
يكون جهلها بما تراه منها مستلزماً نفي وجودها او
وجود صانعها. لان عدم معرفتها لم يكن من عدم
وجود الاشياء بل من سموها عن رتبة ادراكها
وهكذا الانسان اذ كان عقله قاصراً عن ادراك
حقايق الموجودات وكيفية اعمال الله وكانت هذه غاية

ما تصل اليه معرفته في ما يقع تحت حواسه فلا يليق
 به ان يتمسك بما يوهمه قصر ادراكه في الاشياء
 الروحية ويقف عنده. بل يجب عليه التصديق
 بوجود ما يفوق رتبة معرفته. فيقرُّ بانهُ ولو فاق ما
 اعلنه الله للناس ادراك عقله ملتزمٌ بتصديقه اعتماداً
 على الانبياء والرسل الذين لم ينطقوا الا بالهامه
 تعالى. وقد اثبتوا صدق تعاليمهم ببراهين عمل المعجزات
 التي لا يقدر الكافر على انكارها متعللاً بتقادم عهدها
 وامكان دخول الغفلة على مشاهديها او عدم الثقة
 بصدق المخبرين بها. وبراهين صدق النبوات التي
 قد شوهد تمام كثيرٍ منها طبقاً لما كتبت قبل حدوثها
 باجيالٍ كثيرة مما ليس في طاقة البشر معرفته قبل
 وقوعه

ولا سبيل له ان يقول لماذا لم ادرك هذه الحقايق
 الروحية مع معرفته ان الانسان قاصرٌ بالطبع عن

اعطاء الحكم الصائب فيها السمو شانها . اذ لو كانت
 ما نستطيع ادراكه لم نكن محتاجين الى وحي الهى
 يخبرنا عنها ولا كان اقتضى الحال ارسال رسل
 يبرهنون صدق مقالهم عنها بعمل المعجزات الفايقة على
 الاطوار البشرية . ولا سيما اننا نرى انفسنا عاجزين
 عن تحقيق كثير من الاشياء الواقعة تحت حواسنا
 حتى اننا نجعل انفسنا التي هي اقرب الاشياء الينا ولا
 نستطيع ان ندرك ماهية شعرة من شعر رؤوسنا
 وكيف يمكن انكار ذلك مع ظهور ضعف حواسنا
 عن ادراك اشياء كثيرة ما تدركه البهائم التي هي
 دوننا . فاننا نرى اكثرها تدرك ما يضرها وينفعها من
 الاغذية والاشربة بحاسة غريبة جدا عن ادراكنا
 لاننا لانعرف ذلك الا بالتجربة . فان الفارة الصغيرة
 عند اول مرة تنظر السنور تهرب منه واما الانسان
 فاذا لم يعرف فعل العقرب بالتجربة يمسكه بيده ونرى

الطائر يدرك المنظورات على بعدٍ عند ما لا نستطيع ان نراها ابداً. والكلب يدرك من الروائح الخفية ما لا ندرك له اثرًا بالكلية. وما ذاك الا لضعف حواسنا واذا معنا النظر في امتداد الظل او قلوبه تدريجاً لاندرک منها شيئاً في وقت حدوثه ولا نشعر به الا بعد حينٍ عند ما نراه قد انتقل بعيداً عن مكانه. ومن المعلوم انه لم ينتقل دفعةً واحدة بل بالتدرج. وحينئذٍ نحكم على انتقاله بقوة العقل. وهكذا يجري الامر في نمو الحيوان والنبات التدريجي الذي نعجز عن ادراكه بابصارنا. وكذلك الاجسام المقدوفة بشدة كالرصاص الذي يدفعه البارود فاننا لانراها ولو مرّت تجاه اعيننا. والكواكب تسير في افلاكها باسرع من ذلك اضعافاً كثيرة ونراها كأنها ثابتة في مراكزها لا تتحرك. وكذلك قد شوهد بواسطة النظارات كواكب في السماء لا عدد لها. وفي الماء

حيوانات صغيرة تعجز عقول البشر عن احصائها .
 وجميعها لا تقدر حواسنا على ادراكها لولا الاستعانة
 بالآلات التي لو لم يتصل الانسان الى اختراعها لكانت
 هذه المنظورات لم تنزل مجهولةً منا كغيرها مما نظنه الى
 الان مجهولاً ايضاً عندنا . ولذلك لا يكون عجز
 حواسنا عن ادراك هذه الاشياء حجةً على نفي
 وجودها

واذا كانت حواسنا الظاهرة احياناً كثيرة لا تفيدنا
 معرفة حقايق الموجودات لقصورها عن ادراكها
 ونحتاج الى حكم العقل في تحقيقها فهل يكون امراً
 عجيبياً اذا كان يوجد هذا القصور نفسه في وظيفة
 العقل عن ادراك الامور الروحية السامية . وان
 يكون حكمه فيها غير صحيح اما لعجزه عن الوصول
 اليها لضعفه لالعدم وجودها كما تقدم مثاله في ما
 يراه الظير ويشمه الكلب وتدركه النظارة . واما

لغشاوةٍ تعلوهُ كالاعتماد على التقليد والاعتماد
بالنفس وهذا يكون كالرمد في الاعين السليمة .
واما السبب اعتقال النفس في سجن الجسد الذي
كثافته تمنع ابصارها عن ادراك هذه الاشياء السامية
على حقايقها كالزجاجة ذات اللون التي تُرى الاشياء
من ورائها متلوّنة بلونها فاذا انفردت عنها تظهر
الوانها الحقيقية . وهكذا النفس متى أُطلِقَت من سجنها
تري الاشياء على حقيقتها . ولنا على ذلك مثالٌ مما
يراه الانسان من الاحلام ويحكم العقل بتصديقه وهو
في حالة النوم . ولكنه عند اليقظة يظهر له فساد ما
كان قد حكم بصحته . وما ذلك الا لكون العقل في
حالة النوم مقيداً عن اتمام وظيفته كالواجب فيرى
الاشياء على غير حقايقها ويحكم عليها بحسب ما ظهرت
له . وعندما يحصل على حرّيته يراها على قدر ما كان
له من القوى الطبيعية

وبما ان الاخ المشار اليه من المتروّضين في
الاصول الهندسية والحسابية اردت ان ابرهن له على
قصور ادراك الانسان بايراد بعض مسائل من هذا
الفن مما تعجز البشر عن معرفته مع كونه موجوداً وغير
مستحيل ولو كانت هذه المسائل غير مجهولة منه.
فاقول لماذا نعجز عن تحصيل كمية جذر العدد الاصمّ
بالتحقيق الذي لا ينبغي ان يكون مجهولاً منا. اما
الدعوى بعدم وجوده لكونه اكثر من جذر المجذور
الصحيح الذي دونه واقلّ مما فوقه ولذلك يكون
عدداً صحيحاً مع كسرٍ. وان مربع ما فيه الكسر لا بد
من وجود الكسر فيه فهذه مردودةٌ وليست الا
كقول القايل

كاننا والماء من حولنا قومٌ جلوسٌ حولهم ماءٌ

لان الجذر الحقيقي هو موجودٌ في ذاته والموجود
لا يستحيل وجوده. اذ لو رسمنا خطاً على وتر زاوية قائمة

مجموع مربعي ضلعها غير مجذور بان يكون احدهما
 ثلاثة والاخر واحداً مثلاً لكان الخط المرقوم جذر
 عشرةً ثلاثة معلومة مع كسر مجهول. وهكذا جعلنا
 هذا الخط نفسه وتر الزاوية قائمة متساوية الساقين
 لكان كلٌّ منهما اثنين معلومين مع كسر مجهول.
 وحينئذٍ مجهل عندنا كمية كل من اضلاعها الثلاثة
 مع اننا نعلم يقيناً ان مساحة سطح هذه المثلثة هو اثنان
 ونصف

وبناءً على ذلك اقول كيف يجيز حكم العقل ان
 الخطوط المرسومة في الخارج تجاه اعيننا تعجز فلاسفة
 العالم قاطبةً عن قياسها ولا يمكنهم نسبة كسرها الى
 المقياس المفروض واحداً ولو مهما اخترعوا له من
 الخارج. فلو قيل هذا لمن يجهل الاصول الهندسية
 لتوهم ان عجز الفلاسفة عنه امرٌ مستحيل. ولم يصدق
 قط ان يوجد ثوبٌ او خيط يعجز جميع البشر عن

ادراك كمية ذرعه بالتحقيق حال كونه امام اعينهم
وملموساً بايديهم

واقول مثل هذا في الخط المفروض واحداً اذا
نُصِّفَ ثم نُصِّفَ نصفه وهلمَّ جرّاً الى نهاية الخط التي
لا ريب في وجودها. فان كمية جميع الاقسام هي واحدٌ
معلومٌ باليقين ان اولها نصفٌ وثانيها ربعٌ وثالثها ثمنٌ
وهلمَّ جرّاً. ولا يمكن معرفة القسم الاخير منها حال
كونه موجوداً بالضرورة ومنتهياً بنهاية الخط المعلومة.
فان قيل انه نقطة هندسية فذلك مردودٌ لاستلزامه
مساواة القسم الذي قبله. فاذا رجعنا القهقري يكون
مجموع الخط نقطةً والحال انه واحدٌ

وماذا عسى يمكنني ان اقول عن قضية الجواهر
الفرد التي لم تتفق عليها عقول الفلاسفة. والى الان
بعضهم ينكره وبعضهم يثبتهُ. وكل فريقٍ يبرهن
على صدق دعواه بما يحكم العقل بصحته. ولم يوجد

وجهه لنفي احدها نفياً قاطعاً. لان من يثبتهُ يبرهن عليه بالنقطة الهندسية او راس الزاوية مثلاً. ومن ينكرهُ يبرهن بقبول كل موجودٍ هيوليٍّ للقسمة. وانه لو حُصر بين جسمين لقابل احدها بوجهه لا يقابل به الاخر. والعقل الانساني يميز تصديق كل من القولين مع تناقضهما حال كون قسمة الحق مستحيلةً في ذاتها

واذا نقرر عجز الانسان عن ادراك حقائق اشياء كثيرة ما هو واقع تحت حواسه فهل يليق به ان يتفلسف على الامور الروحية السامية فوق ادراك جميع المخلوقات ويقول يجب ان يكون هذا كذا وذاك كذا. ولا يدع عن جهله لحكمة خالق الكائنات الذي افاض عليه جزءاً من قوة الادراك الالهي يتفلسف به عليه ويعلمه كيف يصنع وكيف يحكم بل لكي يعرفه به ويتعلم منه كيف يعبدُه وماذا يجب عليه لله ولقريبه

ولا يُجْهَلُ الآن عند ذوي المعارف عظم اجرام الكواكب وان الارض كوكبٌ صغيرٌ سيَّارٌ من جملة المتحيرات التي تدور حول شمسنا. وقد كان ذلك مجهولاً عند قدماء الفلاسفة. حتى انه في عصرنا يوجد من العقلاء من ينكر هذه الحقائق الثابتة لعدم وقوفهم على براهينها. فالجهل بها في ما مضى وعند البعض في جيلنا الحاضر لا ينفي وجودها ولا يكون برهاناً على نفي ما نقرر عند علماء عصرنا

فمَّا نَقْدِمُ بِيَانَهُ يُتَبَرَّهِنُ جَلِيًّا قُصُورَ الْاِدْرَاكِ الْبَشْرِيِّ وَعَجْزَ الْعَقْلِ الْاِنْسَانِيِّ عَنِ تَحْصِيلِ كَثِيرٍ مِنَ الْحَقَائِقِ. وَانْ مَا يَقْصُرُ عَقْلُ الْاِنْسَانِ عَنِ اِدْرَاكِهِ لَا يَلْزِمُ اَنْ يَكُونَ بَاطِلًا فِي ذَاتِهِ وَلَا يَحْتَقُ لَنَا اِنْكَارُهُ بِحُجَّةِ قُصُورِ اِدْرَاكِئِنَا عَنِ مَعْرِفَتِهِ اِلَّا اِذَا كَانَ مُسْتَحْيِلًا فِي ذَاتِهِ وَبِهَذَا كِفَايَةٌ

الفصل الرابع

في ان اجتماع عقول البشر لا يزيد مقدارها ولذلك لا
يجعلها تدرك ما كان فوق القوة المفروضة من الخالق
لانسان واحد تام الخلقه

ان اجتماع عقول الكثيرين لا يعطي قوةً لتحصيل
الحقايق التي معرفتها فوق غاية قُوى الادراك الممنوحة
من الله للنوع البشري. لانه سبحانه وتعالى قدّر لكل
حيوانٍ درجة من العقل تناسب حاله وفضل
الانسان على جميعها ولكن لم يبلغه درجة الكمال لانها
مختصةٌ بذاته القدوسه. واذ كانت قُوى حواسه
منبعثة عن مصادر مستقلة لا اشتراك فيها لم يكن
اجتماعها مفيداً لتقوية ادراكها. فلا يمكن ان نرى
بالعينين ضعف البعد الذي نراه بالعين الواحدة.
ولا يمكن الرجال الاربعة ان يسمعوا باجتماعهم مقدار

ما يسمعه الرجل الواحد اربع مرات . وهكذا نقول في اجتماع العقول ان غاية ما يستفاد منه هو تحصيل ما يقصر عنه ادراك البعض الذين قوة عقولهم في مرتبة ادنى من المرتبة المفروضة للانسان التام الانسانية . كما لو اجتمع الناس لرؤية الهلال مثلاً فربما يراه بعضهم دون البعض الاخر بشرط كونه في بعدٍ عن الشمس تمكن فيه رويته باعين البشر السليمة والا فلا فائدة من هذا الاجتماع . فتكون غاية ما يجتمعون اليه انما هي تحصيل غاية ما يقدر الانسان على معرفته مما كان القصور فيه ليس من جهة عدم امكانه بل من جهة قصور بعض الناس عن درجة الادراك الانساني التي كان يمكن وجودها فيهم

فاذا تحصيل البعض لما يجمله غيرهم لا يبرهن امكانية ادراكهم لجميع الحقائق حتى ولا يبرهن ادراكهم لكل ما يمكن غيرهم ان يدركه . سواء كان في القضية

الواقع فيها البحث ام في غيرها. كما ان قصور البعض
عن تحصيل كل ما ادركه غيرهم لا يبرهن وجوب
رفض ما لم يقدروا على ادراكه

هذا وان الانسان مع تمادي الاجيال قد امكنه
ان يستنبط آلات كثيرة. منها التقوية وظايف حواسه
الحيوانية. ومنها المضاعفة قواه العضلية ليمكن من
رفع الاثقال التي لم يكن في طاقته حملها. فاخترع
لمساعدة البصر الزجاجات المحدبة الجامعة للاشعة
الضوئية والمرآة المقعرة. واستعان بها على رؤية
الاجرام البعيدة كالنجوم والكواكب والاجسام الصغيرة جداً
ما لا يمكنه ادراكه بمجرد قوه ابصاره الطبيعية.
واستنبط لمساعدة وظيفة السمع الاسطوانات المحوّفة
المسماة بالقرنين السمعي الجامعة للتموجات الهوائية
الحادثة من فعل الاشياء المصوتة ليستعين بها على
ادراك الاصوات الضعيفة والبعيدة التي لا تنثر منها

حاسة السمع لخفتها وضعفها. واخترع لرفع الاثقال
آلات كثيرة حتى صار يرفع بواسطتها اثقالاً عظيمة
جداً يكاد يخرج تصديقها عن دايرة العقل. ولا يسعنا
تعداد الاختراعات التي استنبطها الانسان للمساعدة
على اعماله فنكتفي بما ذكرناه

فهذه الاختراعات جميعها قد استعان الانسان
على استنباطها بواسطة قواه العقلية. واما قوة التعقل
نفسها فلم يكن في طاقتها ان يبتدع آلة لمساعدتها لكي
يقدر بواسطتها ان يجعلها تدرك ما لا يقدر العقل
وحده على ادراكه فغاية ما امكن لمساعدته هو استعمال
الرياضة والتمرين بتعليمه ما قد تعب الغير في تحصيله.
وهذا انما هو كاللحل للعين يجلو الصداً المتلبس به او
يزيل الاعراض الطارية على جوهره. او كترويض
الحواس باستعمال وظائفها. وجميع ذلك يفيد ان
ذاك العضو يتم افعال وظيفته كما يجب على مقدار ما

كان فيه من القوى الطبيعية لانه يعطيه قوةً حديثة
 تفيده الزيادة على الحد الطبيعي المفروض له من الخالق
 واذ كنا محتاجين الى واسطة نرفع بها عقولنا الى
 رتبة نستطيع بها ادراك ما فوق هذه العقول اعطانا
 البارئ تعالى كتبه المقدسة التي ليست كنظارة المعلم
 هرشل تربينا الكواكب البعيدة فقط بل بواسطتها
 تخرق ابصار عقولنا اعلى طباق السموات وتدرک ما
 فوقها من السعادة والمجد وتسمع آذاننا تسامع المملیكة
 وشرايع الله واحكامه العميقة. وكما يستحيل على قوى
 ابصارنا ادراك الكواكب البعيدة ما لم ننظر اليها
 بالنظارات الفلكية هكذا يستحيل على عقولنا ادراك
 احكام الله والمجد السموي على الحقيقة ما لم ننظر اليها
 من الكتب المقدسة التي لم تُصنع بايدي هرشل ولا
 غيره من البشر بل بيد الله الذي وضعها لنا آلة
 وحيدة ليتمكننا ان نراه بواسطتها

الفصل الخامس

في ان عدم مطابقة بعض مراسيم الديانة لاحكام العقل
البشري لا ينفي صدقها

انه قد تبرهن في ما تقدم عجز العقل البشري عن
ادراك جميع الحقائق وان كثيراً ما هوتحت حواسنا
لا نستطيع ادراكه لاسبب عدم وجوده بل لضعف
حواسنا عن تحصيله. ولما كان العقل البشري في
حالة التوسط اللائق به كان ادراكه لبعض الحقائق
ما هوتحت حواسه لا يستلزم ادراكه لجميعها. كما ان
جهله ببعضها ما هو فوق استطاعة الحواس لا يستلزم
جهله بكل حقيقة

فقضية وجوب الديانة هي ما في طاقة عقول
البشر ادراكها كما هو في طاقتهم ايضاً ان يميزوا صحيحها
من فاسدها. واما كيفية العبادة التي يرضيها الله

منهم فهذه لم تكن معرفتها في طاقتهم اذا لم تعلن لهم
بوحى الهى . اما كون وجوب الديانة هو ما في طاقة
البشر ادراكه فذلك لانها تتضمن جوهرياً الاقرار
بوجود الصانع وحكمته ووجوب عبادته ومحبته ومحبة
القريب . فوجود الصانع وحكمته يتضح بدلائل
كثيرة اظهرها دليل الاثر على المؤثر لاننا نرى الكائنات
المتقنة التي يستحيل وجودها على هذه الصفة بدون
صانع حكيم . ومن كان كلى الحكمة والقدرة تجب
عبادته ومحبته . وكذلك محبة القريب فان العقل
السليم يدل عليها بان نعامله بما نريد ان يعاملنا به .
واحتياجنا الى مخالطة بعضنا بوجب ذلك اذ لا
نتيسر لنا الراحة في هذا الاجتماع بدون الاتفاق
الناتج عن المحبة . ومن ثم نصير محتاجين بالضرورة
الى تقديم المحبة نحو القريب . واما كون الانسان
يستطيع ان يميز صحيح الشريعة من فاسدها فهذا قد

افردت له فصلاً مستقلاً بعد هذا. واما عدم قدرته
 على ادراك كيفية العبادة التي يرضي الله بتقدمتها له
 فذلك ظاهر لانها مخصصة به تعالى لا بالبشر. فان
 الانسان ولو كان قد عرف الخالق جل شأنه وعلم
 انه كلي الحكمة والصلاح لم تنزل معرفته قاصرة جداً
 عن ادراكه كما هو في ذاته بالحقيقة. واذ كانت معرفة
 الانسان قاصرة عن ادراك تمام صفات الله الذاتية
 لايتأتى له ان يدرك كيفية العبادة اللايقة بجلاله
 تعالى على ما ينبغي. ولهذا كانت العبادات المرسومة
 في الكتب المقدسة ولو كان يظهر لضعف الانسان
 ان بعضها لا يوافق احكام عقله لا ينتج منها عدم
 صدق الديانة لان العبادة ليست من القضايا
 الموضوعية تحت حكم ما يبلغه قصر ادراك البشر
 واضرب لذلك مثلاً بقضايا كائنة تحت حواسنا
 ونحن نعتقد صدقها مع كونه مصاداً لما يحكم عقلنا

بصحته . وهي ما نعلمه من طرق معالجة المرض الجلدي
 المسمى بالحزاز . فانه مع كونه مرضاً التهابياً نراه يبرأ
 بوضع الكاويات عليه . وذلك مغايراً بكليته لاحكام
 قوانين الطب المعقولة التي تحكم بمقاومة الالتهاب
 بضده لان المعهود ان الكاويات تُحدث الالتهاب
 في العضو الذي تلامسه لاتزيل الالتهاب عنه .
 وهكذا يقال في الرمد الالتهابي انه يزول كثيراً بوضع
 محلول الحجر الجهنمي في العين . ومع كون هذه القضايا
 ما هو تحت حواسنا ويحق للعقل ان يحكم بها قد
 وجدنا مكنونات الطبيعة رسمت علينا حكماً صادقاً
 للعيان مغايراً لما يقضي به العقل البشري في ما لا
 يسعنا انكاره ولم تقدر على ادراك العلة الحكيمية في
 ذلك

واذ كان للطبيعة المخلوقة احكاماً صادقة ولا بد
 ان تكون هي الحق لثبوت نفعها بالتجربة وهي لاتطابق

احكام عقولنا فلا يكون امراً بعيداً اذا كان لمخالق
الطبيعة احكامه تخالف ما يقضي به ادراكنا وتكون
هي الحق في ذاتها. ولهذا يجب على العقل ان يصدق
كل ما رسمه الله تعالى في شرايعه ولو ظهر له في بعضها
ما لا يطابق احكام عقله. لان الانسان عاجز بالطبع
عن ادراك العلة الحكمية في ذلك اكثر من عجزه عن
ادراك ما دونها مما اوضحناه

الفصل السادس

في ان التمييز بين صحيح الديانة وفسادها هو مما في
طاقة الانسان

قد وعدت في الفصل السابق بافراد فصلٍ
مستقلٍ للكلام على هذه القضية فاقول اننا اذا اردنا
البحث عن التمييز بين صحيح الديانات المستقلة
وفسادها نلتفت اولاً الى كتبها الموثوق بها من اصحابها
انها من الله . فنسأل هل هي مزورة ام مكتوبة من
الاشخاص الذين اشتهرت نسبتها اليهم . وهل هي
كاذبة في الحوادث التي تخبر عنها ام صادقة فيها
حتى يوثق بها من دون ريب . والبرهان على ذلك
يشبه البرهان الذي تقدمه على صدق بقية الكتب
او كذبها مشابهة تامّة . فلا بد ان يكون الحكم فيه هو
مما في طاقة الانسان . ولنا في هذا البحث ان تقابل ما

تتضمنه هذه الكتب بما تتعلمه عن الاخبار والمباني
 الفلسفية الراسخة من كتب ووسايط اخرى. فان
 وجدنا كتاباً من هذه الكتب يخوي على قصص او
 تعاليم تنكرها اخبار التواريخ الصادقة او احكام
 الفلسفة الطبيعية المثبتة لم يمكننا ان نشق به. ولكن ان
 كان كل ما تتعلمه جديداً عن الحوادث التاريخية من
 كتب اقدم الطوائف مثلاً او من خطوط منقوشة
 على حجارة في هياكل المصريين القدماء او مكتوبة
 على صخور تُستخرج من ردم مدن الاثوريين المطمورة
 الى غير ذلك نجد ان ثبت اخبار هذا الكتاب ولا
 يوجد شيء في احكام احداث العلوم المتقررة يخالف
 تعليمه فتزداد ثقتنا به جداً. وهذه بعينها هي حالة
 الكتاب الذي يؤمن المسيحيون بانه من الله. وليت
 شعري هل يصدق هذا الكلام على كتاب اخر
 ثم اذا تحققنا صدق الكتاب فنبعث باكثر تدقيق

عن حقيقة ما يتضمنه من الاخبار والتعاليم. فان
 وجدنا فيه نبوات مكتوبة قبل تمامها باجيالٍ ثمّمت
 حرفياً عن يد اناسٍ لم يقصدوا ذلك او لم يعرفوها
 اصلاً نحكم بان هذه النبوات قد صدرت لامحالة من
 الله. لانه وحده عزّ وجلّ يعرف المستقبل. وهكذا ان
 وجدنا فيه معجزاتٍ تفوق قوى الطبيعة بالكلية او
 تناقض قوانينها جلياً نحكم ايضاً ان الله قد صنعها.
 لانه وحده يقدر ان يغيّر او يبطل الاوضاع التي
 جعلها للخلقة. ثم اذا وجدنا ان الذين نطقوا بهذه
 النبوات وصنعوا هذه المعجزات هم انفسهم كتبوا
 الكتاب وادّعوا ان كل ما كتبه مؤيدٌ بسلطان
 الله وان التعاليم هي تعاليمه تعالى نحكم بان ذلك
 الكتاب انما هو كتاب الله. لانه تعالى لا يسلم لاحد
 نبوة ولا يمكنه من اجراء معجزة بحيث يعطى تأييده
 للكذب. وهذا هو نفس التعليل الذي يصدق على

الكتاب المقدس وبيّن انه مؤيدٌ بسُلطانِ الهى .
وجميع هذه البراهين واضحةٌ لانفوق طاقة الانسان
اكثر من البراهين التي ثقتنا في الامور المتعارفة .
واين نجد كتاباً اخر مستنداً على براهين مثلها
ثم ان لنا ان ننظر الى تأثير الديانات في
الاشخاص والشعوب المتدينة بها . اما من جهة
الاشخاص فنسأل ايّ ديانة تجعل اصحابها يجنبون
الفواحش ويكونون صادقين امانةً في كلامهم
ومعاملاتهم . ومحبين ومحسنين ليس لاهل ديانتهم
فقط بل لجميع الناس . ومتشبهين بالله الذي هو
كاملٌ في الطهارة والصدق ويشرق شمسهُ على
الاخيار والاشرار . فاننا نتظر صدور جميع ذلك
من ديانةٍ قد صدرت من الله . وهذا هو نفس تأثير
ديانة المسيح في الذين يشربون روحها بالحقيقة .
واين تجد غيرها يصدق عليه هذا الكلام . نعم ربما

يوجد بين المسيحيين الذين نعرفهم اناس كثيرون لم
يظهر فيهم هذا الاثر الصالح. ولكن يكون سبب هذا
القصور هو تركهم الكتاب المقدس مع اتخاذ وصايا
الناس مكانه او التغافل عن واجبات الديانة
بالمكينة كما هو حال اكثر المسيحيين في بلادنا. واما
من جهة الشعوب فاعظم البركات التي منحتها
الديانة المسيحية للمالك التي تبعتها. فانها كانت
قبل ذلك برايرة متوحشة فتقدمت في التمدن شيئاً
بعد شيء حتى فاقت على غيرها في كل ما يؤول
الى خير شعوبها من جهة تعليم عموم اولادهم ما
يحتاجون اليه من معرفة الكتب والتقدم في المتاجر
والصناعات التي تكتسب لاربابها الاموال الجزيلة ونمو
العلوم السامية يوماً بعد يوم. وهذه الممالك في
درجات مختلفة من ذلك ولكن ترى كل واحدة
منها تمتد قوتها وسطوتها ويتقدم شعبها في الراحة

والنجاح على قدر شدة تمسكه بتعاليم هذا الكتاب .
 فهل ترى فوق طاقة العقل السليم ان يفهم من ذلك
 ان الكتاب الذي تتبعه خيراتٌ مثل هذه يحنوي
 على بركةٍ تشهد بانهُ صادرٌ من الله

هذا اذا كان البحث عن التمييز بين الديانات
 المستقلة . ولكن اذا كان عن مذاهب ديانةٍ واحدة
 كمذاهب الديانة المسيحية المختلفة فنقول ان اكثر
 ما اختلفت عليه هذه المذاهب يتعلق بقضايا ليس
 لها ذكرٌ في الكتاب المقدس . وهل يعسر على العقل
 البسيط ان يحكم بان جميع ذلك خالٍ من سلطان
 الهى فلا يكون قبول شيءٍ منه من باب الواجب .
 ولكن اذا كانت القضايا المختلف عليها مذكورة في
 الكتاب المقدس فعلينا ان نبحث عن معنى هذا
 الكتاب كما نبحث عن معنى غيره باستعمال الوسائط
 المعتادة . والشرط الاعظم حينئذ ان تكون النية

مستقيمةً والعقل خالياً من التعصب لان التعاليم
الاهم في الكتاب المقدس قد ذكرت مصرحةً
ويفهمها بسهولة ايسط العقول

واما قول الاخ المشار اليه ان اخلاف الاديان
هو فيما لا نظن ان الله يسأل عنه فلنا عليه كلامه
مختصر يظهر ما فيه من الغلط. ونحن في ذلك لا
نلتفت الى قضية وجود الله ولا الى توحيدهِ ولا الى
وجوب المحبة والطاعة له وما شبه ذلك مما تشترك
فيه اديار مختلفة. بل ننظر الى القضية العظيمة
المتازة بها ديانة المسيح عن جميع الديانات الاخرى
وهي قضية الفداء اي الخلاص من الخطية بواسطة
موت المسيح. ولا ريب ان مثل هذه القضية امر
جوهري يحق له الاعتبار العظيم من جميع الخطاة
الذين نحن منهم. فان بولس الرسول الذي زادت
اتعابه عن اتعاب جميع الرسل قد حسبها مهمة بهذا

المقدار حتى انه لم يرد ان يركز بشيء اخر غير يسوع
 المسيح مصلوباً. وبطرس الرسول وهو اسير امام
 مجمع اليهود صرح بان ليس بغيره خلاص لانه لا
 يوجد اسم اخر تحت السماء نخلص به. ويوحنا السابق
 قال مشيراً اليه هوذا حمل الله هوذا الذي يرفع
 خطية العالم. ويسوع نفسه قال عند موته انه لاجل
 تلك الساعة اتى الى العالم. وقال ايضاً انه لا ياتي احد
 الى الاب الا به. والاب بصوته من السماء شهد انه
 ابنه الحبيب الذي سر به وامر الناس ان يسمعوا له.
 وبالجملة اننا اذا تتبعنا العهد الجديد لكي نستخلص منه
 قضية تعليمه الجوهريه التي يرجع اليها ويتعلق بها
 جميعه نرى انها هي قضية الفداء بموت المسيح. فان
 الرسل علموها في كل ما كتبوه. والمسيح اشار اليها
 انها هي الغاية التي لاجلها ترك المجد الذي كان له
 عند الاب قبل انشاء العالم ولبس الضعف البشري

وخضع تحت الاهانة والآلام . وابل لاجلهم الم
 يشفق على ابنه الوحيد بل سلمه الى ايدي الخطاة .
 فان كان جميع ذلك صادقاً فكيف يكون انكار
 موت المسيح مثلاً ما لا يلتفت الله اليه . او كيف يحسبه
 البارئ تعالى خطأ عرضياً ان تغافلنا عن هذا المخلص
 والنجانا الى غيره من اجل الخلاص . او كيف لا
 يسأل عن ضلالتنا اذا ظننا ان صلاحنا وبرنا يخلصنا
 منزلين بذلك اتعاب المسيح وآامه منزلة العبث . اما
 يكون جميع ذلك انكاراً لما هو اعظم الامور عند الله
 واهانة له . هذا ان كان كلام الانجيل من الله . والا
 فيكون قبول هذا التعليم من باب التجديف . وعلى
 كلاً الاحمالين لا يكون ذلك مما لا يسأل الله عنه . فينبغي
 لهذا الاخ الحبيب ان يطالع الكتاب المقدس جيداً
 لكي يعرف مقدار قيمة تعاليمه المتعلقة بقضية الفداء
 بدم المسيح . وحينئذ يرى مقدار الوهم الذي وقع فيه

الفصل السابع

في وجوب وضع الشريعة وان نوايس الطبيعة لولا تكرار
صدور افعالها على حواسنا لكان العقل ينفي تصديقها

ان احكام العقل الانساني على الاشياء سلباً او
اجباً لم تكن على طريقة واحدة. فانه تارة يحكم على
الشيء حكماً وجوبياً وتارة حكماً نسبياً وتارة حكماً قياسياً.
فالحكم الوجوبي هو ما لا يُحتمل فيه وجه آخر كالحكم
على العدد بانه اما زوج واما فرد. وعلى الجسم الواحد
بانه لا يشغل مكانين. وكذا الحكم بان هذا الشيء لا يكون
عين ذلك. وان كل جسم له ست جهات وان كل
اثر لا بد له من مؤثر. وان الجسم لا يكون ابيض
وغير ابيض معاً الى غير ذلك من الضروريات
واما الحكم النسبي فهو ما كان الحكم فيه بالنسبة
الى قضية اخرى معلومة. كما اذا حكم على هذا الشيء

بالكثافة مثلاً بالنسبة الى معلومٍ اللطف منه. وعلى ذلك بالطول بالنسبة الى معهودٍ اقصر منه. وعلى ابعاد الكواكب بالنسبة الى المقياس الموضوع للتقدير الى غير ذلك من النسبيات -

واما الحكم القياسي فهو ما عرفه الانسان بحسب العادة المقررة من تكرار الحوادث على حواسه مع جهالة العلة الحقيقية الموجبة لسدورها. كالحكم على المغناطيس انه يجذب الحديد. وان الاجرام السموية تجذب بعضها. وان الحرارة تمدد الاجسام. وان المادّة الضوئية وحدها اذا انعكست للعين تُرى المنظورات. وان الماء يطفى النار وان الريح تضررها. وان رطوبة الارض توجب نبات البذور الى غير ذلك مما ليس في طاقة الانسان معرفته

فهذه القضايا تُسمى نواميس الطبيعة او شرايعها وجميعها ما لا يستطيع الانسان ان يدرك العلة الحكيمة

فيه ولكن جد ادراكه انما هو ما تقرر عنده من
المشاهدات كما انه لا يعلم لماذا انواع النبات العايشة
في ارض واحدة او بالحري المطعمة في شجرة واحدة
يثمر بعضها حلواً وبعضها مرّاً وبعضها حامضاً. وهي
تغذي باصل واحد وساق واحد من ارض واحدة.
ولماذا يوجد في تحليلها من العناصر الكيماوية ما لا
يوجد في غذائها. وهكذا لا نعلم ما هي الوصلة الكائنة
بين صيوان الاذنين واعضاء التناسل لاننا نجد
الحيوانات ذوات الاذان البارزة تلد وغيرها تبيض
ما عدا الحيات المسمة فانها تلد ولادة وما باض منها
فلا سمّ فيه. ولا نعلم لماذا يقف الديك شاخصاً لا
يتحرك عند ما تخط امامه بالحبر على الورق خطاً طويلاً
ممتداً تجاه عينيه. ولماذا لا يؤثر ذلك في الدجاجة
فتقرر العادة بتكرار هذه النواميس على حواس
الانسان قد جعله يعتبرها انها امر سهل مع ان كل

واحدة منها تنصرف عقول جميع البشر عن ادراكها. هذا
 وان النار اشهر الاشياء معرفة. فلو فرضنا وجود قوم
 لا يعرفونها وقيل لهم ان شرارة منها اذا اصابت جسماً
 الهبته وصار له نور عظيم حتى يتلاشى. ولو صادف
 هذا الجسم مدينةً احرقها. ويمكنه ان يحرق مدن العالم
 باسرها مع غواب البراري ويتلف كل ما هو قائم على
 سطح الارض ويجعلها خراباً ولا يبقى ما يصادفه الا
 رماذ قليل فمن غير شك انهم يمكنون باستحالة
 وجود جسم مثل هذا لانه ما يفوق الادراك البشري
 فلنترك ما تقدم من الامور الفارقة طاقة البشر
 وننظر في الاختراعات التي اتصل اليها الناس مما لم
 تدركه القدماء. فاذا تقول في اختراع السيال
 الغلواني الذي اذا اصاب اعصاب الميت يظهر فيه
 الافعال الحيوية. وماذا تتصور في لقاء السبات
 العميق على انسان مجرد حركات و اشارات من انسان

اخر. واذا صحَّ القول على اخبار هذا النام بالغايات
افلا يكون ذلك من عظيم خوارق العادات الفارقة
حدود ادراك البشر

فهذه القضايا القليلة التي ذكرناها عدا الكثيرة
التي لم نذكرها هي كافية للبرهان على قصور العقل
البشري عن ادراك كثير من الحقائق مما هو واقع
تحت حواسه. وان ما عرفه الانسان منها انما هو
معرفة قياسية يحكم بصدقها قياساً على ما تكرر من
وقوع حوادثها تحت حواسه لا بواسطة ادراكه
لحقيقتها. لانه لو لم يشاهد حوادثها لكان ينفي تصديقها
وتصير عدمية بالنسبة الى قصور ادراكه ولو كانت
وجودية بالنسبة الى حقيقة ذاتها. ويشهد بهذا
قضايا كثيرة مما كان العقل يحكم بعدم جوازها ثم
كُشِفَتْ لَهُ فحُكِمَ بِتَصْدِيقِهَا

واذا كان قد وجد للطبيعة نواميس عالية عن

الادراك البشري ولم تنزل معرفة اكثرها غامضة عنه
بالكلية وحكم العقل بوجود تصديقها عند ما
تقدمت له شهادة الحواس على بعض ما ظهر من
نتائج فعلها. اذ يجب عليه بنوع اولي ان يحكم بوجود
نواميس سامية لمن اوجد الطبيعة واعطاها النواميس
ويكتفي بالشهادة على صدقها ما اتضح له جلياً من
صدق النبوات وعمل المعجزات ومن ظهور تأثيرها
في بني البشر. اذ لا يوجد قوم الا وافتكروا بوجود
الشريعة واعتقدوا بان جهلهم العلة في وجودها
وكيفية صدورها لا يمنع تصديقها وقبولها مع ان اهميتها
لحسن نظام العالم هي علة كلية الايجاب. لان الحكيم
العادل لا يليق بسمو شان جلالته عدم اظهار حكمته
في حسن ترتيب مخلوقاته العاقلة واجراء العدل
وانتظام السياسة فيما بينهم. وهذا لا يتم بدون وضع
الشريعة ولا سيما ان انزل الحكمة الالهية لم تهمل

الجهادات كاللكواكب والارض بدون ترتيب
 وقوانين لاتعدها. هذا وان الانسان مع كونه مخلوقاً
 ضعيفاً لا بد ان يضع شريعةً لاهل بيته لاجل حسن
 انتظامهم واستدامة راحتهم وتعليمهم ما يجب عليهم
 من الطاعة لمراسيمه والقيام بخدمته الواجبة له عليهم
 لانه هو المهتمُّ باعالة جميعهم. فكيف يليق
 بعظمته تعالى ان يهمل مخلوقاته الناطقة
 بدون شريعةٍ تربط نظامهم.
 وفي هذا كفايةٌ لذوي
 البصيرة

الفصل الثامن

في ان الديانة هي من اهم الامور الواجبة على الانسان
فلا يُعذّر العاقل باهاها

ان الخطأ في الاحكام العقلية يتفاوت الضرر
الناجم عنه في القلّة والكثرة بحسب تفاوت الموضوع
المحكوم عليه. فالحكم على انسان مثلاً بغرامة شيء من
الدراهم ظلماً لا يكون ضرره كما لو حكم عليه بقطع
اليد او بالقتل. ومن اخطأ في حكمه على قضايا زمنية
فالضرر الناتج من حكمه يكون على الغالب محتملاً
وربما يتعوّض من جهةٍ اخرى. ومهما تعاضم امره فلا
يكون باكثر من قتل الجسد وجميعه ينتهي بنهاية
حياة الانسان القصيرة
ولهذا كان الواجب على الانسان ان يحترز غاية

الاحتراز من وقوع الخطا في حكمه وان يكون حرصه
على ذلك بحسب اهمية القضية المحكوم عليها كما في
موضوعنا هذا الذي هو وجوب الديانة ومعرفة
الصحيح منها. فانه لا يوجد موضوع يضاهيه فضلاً عن
ان يفوقه لان خطأ الحكم فيه لا يمكن ردُّ فيما بعد
ولا يوجد وجه آخر يعتاض منه الضرر الناتج عنه
بل يكون ضرراً ابدياً عديم النهاية لا يمكن الخلاص
منه ما دام الله موجوداً

فاذا كانت القضية هكذا فكم ينبغي للعاقل من
الاحتراز لكي لا يخطي في حكمه عليها اذ ليس للانسان
ما يهّمه نظيرها. وكيف يليق بذي عقل ان يتهاون
بامرٍ كلي العظمة مثل هذا. فهل يمكنه الحكم بعودة
ثانية الى الحيوة في دهرنا هذا لكي يصلح فيها فساد
حكمه. هذا لم يقع الا المعجزة فائقة الطبيعة ونادرة جداً.
ومع ذلك فالانسان الخارج عن الديانة لا يصدق

المعجزة ولا قيامة الموتى. ولو صدق بهما لم يكن محتاجاً
الى كلام بهذا الخصوص

وان قال بانكار بقاء النفس والشواب والعقاب
فنسأله اولاً هل ان وجود ذلك ممتنع وجوباً وعليه
البرهان ام هو مضمون. فلا بد ان يعجز عن البرهان
ويدعي بحكم الظن بناءً على انه لم ينظر ميتاً قام ولا
نفساً صعدت الى السماء او هبطت الى جهنم.
وحينئذ يسوغ لنا ان نسأله ثانياً يا ترى ماذا تكون
حالة المتمسك بهذا الظن اذا وجد نقيضه صحيحاً
ثابتاً لان الظن يخطي احياناً كثيرة. واذا وجد
خلاف المضمون فاذا يكون حينئذ للانسان من
التدبير في خلاصه من الضرر الذي التحق به موبداً.
او بماذا يستعيز عن هلاك نفسه الوحيدة

والذي يعتمد على هذا الظن ويرفض الديانة
كيف لا يفكر بامكان غلطه مع امكان وجود

التيض الذي لو اخطأ ظنه بوجوده لم يكن في ذلك خطرٌ عليه البتة لافي هذا العالم ولا في الدهر الآتي بخلاف الظن بنفيه فانه يجعل المتمسك به اشقى الناس حظاً مدة حياته وبعد موته

وفضلاً عما تقدم نقول ما هو الخير الناتج للانسان من تكذيب الشريعة. واي شرٍ نتج منها لكي يجتهد في ملاقاتها. فان كان الذين يتكلمون ضد الشريعة فلاسفةً بالحقيقة فكيف يليق بالفيلسوف ان يسعى في هدمها لانه اذا ظن انها لا تنفع بعد الموت فصلاحتها ونفعها الحاضر ما لا يسعه انكاره. فالذي يسعى في هدم الشريعة يكون بلا ريب ساعياً في هدم نظام المسكونة وتدميرها لانه يرفع منها الصلاح والسلامة ويشحنها بالفتن والشور. ومن كانت هذه نتيجة سعيه فهو فاقد الحكمة والاجدر به ان يدعى جاهلاً لا حكماً لاننا نرى في حالة البشر من حسن التمدن والصلاح

والتوحش والشر على مقدار ما نرے من ذلك في
شرايعهم وفي كيفية تمسكهم بها. ولا نرے متديناً على
ما يجب يقتل او يربط الطرق او يضرب الناس او يعزل
ما يزعج به راحة المالك بل نرے كل ذلك بعكس
ما ذكرنا

واذ كان في استطاعة الانسان ان يميز صحيح
الديانة من فاسدها كما تقدم الكلام فلا يُعذر
بأهاله الفحص عنها والتمسك بها. ولا يكفيه ان
يعرف منفعتها ويكون بمعزل عنها كالطبيب الذي
يعرف الدواء ولا يستعمله في مرضه فيملك بتركه بل
يجب عليه استعماله لينفض من مرضه. وهكذا
يعطيه لذويع الاسقام والافيصير مثلاً ردياً لمن
يقتدي به ويتجمل وزر المتشبهين بحاله

وعلى حسب ما تقدم بيانه يحكم العقل ويجزم
بصلاحية الديانة. واذا كانت صالحة فهي ضرورية.

واذ هي ضروريةٌ فلا بد ان تكون موضوعةً من الله.
 لان الباري تعالى بحسبها هو في ذاته كلي الصلاح
 والحكمة لا يمكن ان يهمل ما هو ضروريٌ من وضع
 الشريعة الصالحة لاجل اتمام نظام مخلوقاته. وهذا
 يكفي للعاقل بان يكون مجتهداً في سعيه لتحصيل
 الديانة الصحيحة والتمسك بها. ويرفع عقله الى
 واهب العقول بالتواضع والخشية. ويلتمس من رحمته
 نعمة الهداية. فاذا استعمل عقله وبذل جهده في
 الفحص وطرح عنه رداء الكبرياء والتعصب الوراثي
 وطلب الهداية من الله بايمان وحرارة فمن غير شك
 ان الباري تعالى يتحنن عليه ويعين ضعفه ووضي
 له مصباحاً منيراً في ضميره ليهديه الى سبيل الحق
 المؤدّي الى الحياة الدائمة. ويبعده عن طريق الباطل
 الذي يقوده الى الموت الابدي
 واما اذا اهل ما يجب عليه التمسك به كما تقدم

فان مدة الحيوة الارضية قصيرة جداً وجميع الطيبات
 فيها زائلة لا محالة. ولا بد ان ياتيه داعي الموت عندما
 لا يمتلك فرصة لاصلاح ما فرط منه ويخسر الخسارة
 الجسيمة بتلاف نفسه الثمينة التي لا عوض له عنها.
 ومن ثم يهوي الى تلك الحفرة الجهنمية التي لانجاة له
 منها الى الابد حيثما يوجد قطع الرجاء وعدم الرحمة.
 وحينئذ لا يجد شفاعاً ولا ملجأً وتنقطع كل وسيلة
 يؤمل بها الخلاص ويندم حيث لا ينفع الندم
 ويستعيض عن المجد السموي ومشاهدة الله وابراره
 الصالحين بالسكنى الابدية في جهنم النار ومعاشرة
 الشياطين واصحابهم الاشرار الهالكين. فنسأله تعالى
 ان يتحنن على جيلة يديه ويرحم جميع عبده بني
 البشر. وينعم عليهم بروح التواضع والهداية الى معرفة
 الحق لتكون لهم فرصة للخلاص من السقوط في وهدة
 الهلاك الابدى ويرجعوا السعادة والمجد الدائم المعد

لم في الملكوت السماوي منذ انشاء العالم ليسجوه
ويعبده الى ابد الابد
امين

م

طبع في بيروت سنة ١٨٥٢ مسيحية